مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة
Laboratoire del'encyclopédie Algérienne Facile

سلسلة إصدارات مخبر الموسوعة الجزائرية.
جامعة باتنة 1 الجزائر

السرديات الجزائرية بعيون أكاديمية

دراسات تطبيقية

مجموعة من المؤلفين

مراجعة وتحرير

الدكتورة حليمة عواج

02

حقوق الطبع محفوظة

السرديات الجزائرية بعيون أكاديمية

مجموعة من الباحثين

إشراف د / حليمة عواج

الطبعة الأولى 2021م

الواصفات: الرواية الجزائرية المعاصرة؛ السرديات الجزائرية؛ القصة الجزائرية المسرح الجزائري؛ أدب الرحلة .

تم اعداد بيانات الفهرسة ولتصنيف من قبل مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

سلسلة إصدارات مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1

(ردمك)978-9931-9522-3-7

جميع حقوق الملكية الفكرية محفوظة ويحضر طبع أو تصوير أو ترجمة أو ادخاله على الكمبيوتر أو على أسطوانات ضوئية الا بموافقة الناشر والمؤلف خطيا

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة

L E A F -- BATNA

00213540209332

Laboratoire.leaf@univ-batna.dz

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة1
كلية اللغة والأدب العربي والفنون

إصدارات مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة
(02)

السرديات الجزائرية
بعيون أكاديمية
دراسات تطبيقية

تأليف مجموعة من الباحثين
إشراف
الدكتورة حليمة عواج

الطبعة الأولى 2021م

الخصائص الفنية والفكرية في أدب" محمد البشير الإبراهيمي"

Technical and intellectual characteristics in the literature of "Al-Bashir Al-Ibrahimi"

د. حسين مبرك، جامعة المسيلة

مقدمة

الخطابة من أقدم الفنون الأدبية التي عرفها العرب في تاريخهم، وهي عبارة عن كلام نثري، قد تتخلله بعض الأشعار والأمثال والحكم، بغرض استمالة السامعين والتأثير فيهم وإقناعهم بفكرة ما، أو موضوع معين، وهي فن يرتبط بالجمهور يزدهر في المواقف والظروف التي تثير مشاعر الجماهير، وتلهب عواطفهم، ولاسيما في حالات اليقظة القومية، والنّهضات الوطنية وفي الثورات الاجتماعية، ونشاط الاحزاب السياسية، وتنمو أكثر في ظل الديمقراطية، وحرية الرأي والتعبير والاجتماع، والمشاركة في الانتخاب والاستفتاء والتغيير والمراجعة، بوصفها أداة فعالة لبث الأفكار، ونشر الوعي. وقد تظافرت عدة عوامل، هيّأت للبشير الإبراهيمي أن يكتسب ثقافة واسعة ومعرفة غزيرة في شتى مجالات الفكر والأدب والسياسة والاجتماع، أسهمت كلها في تكوين شخصيته، وصقل موهبته وعبقريّته، وتوسيع آفاقه الفكرية، منها رحلاته، وشغفه بالمعرفة والعلم، الأمر الذي دفعه إلى الاغتراف من مواردهما والاستزادة من فيضهما، حتى بلغ شأوا كبيرا فيهما، وكان العناية الإلهية خصّته بهذه الخبرات، لتهيأه لحمل الامانة على ثقلها، وقيادة الأمة وحماية العربية والإسلام، وإرساء مشروع النهضة، لاستعادة الحرية والسيادة. وتجدر الإشارة إلى أن البشير الإبراهيمي لم يصرف جهوده في مجال محدود، وإنما كان مصلحا اجتماعيا، وكاتبا ألمعيا، وأديبا أريبا، وسياسيا محنكا، ومفكرا عملاقا "ومن هنا كان الإبراهيمي مفخرة الجيل، وآية الدنيا، ومنه القدرة على العربية وآدابها وفلسفتها، وأحد العباقرة الذين يفرضون خلودهم على الأيام،

فهو العالم الديني الممتلئ الجوانب من روح الشريعة وفقه أسرار الدين، وهو الفيلسوف الاجتماعي الذي لا يشق له غبار، وهو المربي الخبير بمواطن الرشد، ومزالق الغيّ، أما التاريخ وقصصه وعبره، وأما الأدب وعصوره وشعره و منثوره، وأما اللغة وغريبها وما نوسها وتاريخ أطوارها، فهو في هذه كلها كما قيل: حدِّث عن البحر ولا حرج وتمَّم الله عليه نعمته فآتاه حافظة موعية وذاكرة واعية، وأكمل له أدوات العالم الأديب الفيلسوف."[1]، وهو إلى ذلك مستقل الرأي، عالي الهمَّة، متجاوز لحدود وقيود الإيديولوجيا والإقليمية الضيقة، جمع إلى جانب ثقافته التراثية علوم وثقافة عصره "ولم تنحصر قراءاته كمعظم علماء الدين الإسلامي أمثاله على الفقهيات، وما يتصل بها من حديث وتفسير، وسير وأدب وتاريخ "[2]

ولم يتَّسع وقته للتأليف، فقد شغلته صروف الزمان، والظروف العسيرة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري تحت نير الاستعمار، فوقف كل جهده ونشاطه على تحرير النفوس والعقول، وتأليف الرجال، وهو ما أشار إليه بقوله:" لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة، مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنَّني أتسلَّى بأنَّني ألَّفتُ للشعب رجالا، وعملتُ لتحرير العقول تمهيدا لتحرير أجساده، وصحَّحتُ له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا، وصحَّحتُ له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيًا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرَّبِّ، ورضى الشعب "[3]

ومع ذلك كلِّه فإنَّ "محمد البشير الإبراهيمي" قد خلَّف خُطبا كثيرة ومختلفة تختلف باختلاف المناسبات والمواقف، ذلك أنَّ الإبراهيمي قد جاب كثيرا من المناطق والأقطار، من خلال رحلاته وسفرياته وتنقلاته المستمرَّة، وإلقائه

1- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص234.

2- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربية، رسالة ماجستير، كلية الشعب، جامعة بغداد، 1983، ص33.

3- محمد الطاهر فضلاء، الرائد محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، ع87، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985، ص11.

خطبا في المحافل والمناسبات الدِّينيَّة والوطنية، والمواقف السِّياسيَّة والثَّقافية المختلفة.

يقولُ "الإبراهيمي" في خطبة ارتجلها بمناسبة الحفل الَّذي أقيم بكلِّية الشَّعب بمدينة قسنطينة عام ستَّة وثلاثين تسعمائة وألف، بمناسبة ختم "عبد الحميد بن باديس" تفسير القرآن الكريم، وفيها تظهر مقدرته على الارتجال، وعنايته بأسلوب البلاغة العربيَّة، واحتفاؤه بانتقاء الألفاظ الجزلة القويَّة، واستخدامه للسَّجع والجناس" أيها الملأُ ما أشرقت شمسٌ في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس، ولقد مضى بجلاله وروعته، ولم ينطق في وصفه لسانٌ بكلمة، ولا اختجلت من نعته شفتان بحرف، لا زُهدا فيه، ولا عدم عرفان لحقِّه، ولا غُبنا لحقيقته كيوم "شوقي" الَّذي قال عنه: غبُنت حقيقتُه وماتَ جمالُها.. وضاع الخيالُ العبقريُ المُلهمُ.. وإنَّما هو كلامُ الله، وبيتُ الله عقَدا الألسنةَ بجلالها، وحَبَسَا النُفُوسَ على جمالها."[4]

لعلَّ أوَّل ما يطالعنا به هذا النَّصُ الذي أثبتناه، هو أنَّ "البشير الإبراهيمي "في كتاباته وخطبه، لم يأخذ نفسَهُ –يوما-باللغة على أنَّها مُجرَّدُ وسيلة لنقل الأفكار وترجمة العواطف، ووصف المواقف وصفا تقريريا آليا بل إنَّ اللغة – عنده-هي وسيلةٌ وغايةٌ في آن واحد، على نحو ما نجده في كتابات كبار الكُتَّاب والأدباء، وفي هذا السِّياق يرى "عبد الله الرَّكيبي" أنَّ «. وظيفة اللغة لدى الأديب، هي التَّصويرُ وإحداثُ المتعة الأدبيَّة، وتعميقُ الفكرة من خلال هذا الأسلوب أو ذاك."[5] ولا نحسبُ أنَّ فنًا أقدر على التَّأثير في النفوس، وإثارة المشاعر كالخطابة لأنَّها ترتبط بالجماهير مباشرة، وتعتمد عنصر الحماس وأسلوب الإثارة.

4_ عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث-1830-1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1983، ص57.
5- المرجع نفسه: ص 30.

لقد غلبت على الإمام "محمد البشير الإبراهيمي" صفاتٌ جعلت منه نموذجا فريدا من نوعه في روعة البيان، وجمال الأسلوب، وجودة العرض، وإحكام النسج، وبراعة الصِّياغة، نموذجا يمثِّل البلاغة في أرقى معانيها، وخطيبا لسنا مفوَّها من الخطباء البلغاء الذين ملكُوا ناصية القول وأزِمَّة البيان، وقدرة على الارتجال وفصاحة اللِّسان وقد ردَّ بعضُ الدَّارسين هذه الخصائص الملازمة لخطب الإبراهيمي إلى ثقافته الموسوعيَّة، واطِّلاعه على عيون الأدب العربي، وتمثله لأسلوب كبار أدباء العربيَّة في أزهى عصورها، وحفظه للمُتُون اللغويَّة، والدَّواوين الشِّعريَّة، وهو الأمر الذي ألهمه قدرة خارقة في حضور البديهة، واستحضار الشَّاهد، والتَّحكم في أساليب التَّعبير سواءٌ في خطبه ومحاضراته، أو في دروسه ووصاياه، إلى جانب "ظروف التَّرحال وعدم الاستقرار من جهة، وقدرة الإبراهيمي اللاَّمتناهية في الارتجال، والخبرة الفائقة في إدارة الكلمة وتقليبها من جهة ثانية"[6].

ولا يخفى على القارئ أنَّ "البشير الإبراهيمي" هو واحد من العلماء العاملين السعاة، الوُعاة، الدُعاة، الرُعاة، البُناة، الذين لم يستقرَّ بهم مُقامُ، ولم يقرَّ لهم قرارٌ كثيرُ التَّنقُل، والحلِّ والتَّرحال، داخل الوطن وخارجه، فكان لا ينزلُ بقرية أو يحل بمدينة، أو يمُرَّ بمسجد إلَّا ألقى كلمة، أو خطبة، ناصحا، أو موجِّها، أو مرشدا واعظا، أو منبِّها ومعلِّما، فيترك صدى كبيرا وأثرا عظيما.

وواضح أنَّ الارتجالية كانت سببا من أسباب ضياع كثير من خطبه ومحاضراته التي كان يُلقيها في مختلف المناسبات والمقامات والمواقف، وقد ذهب "الإبراهيمي" نفسُه في تعليل ظاهرة الارتجال مذهبا لطيفا، يوحي بقُوَّة حافظته، ونُضج مَلَكته وحُضُور بَديهته، وجَرَيان سَليقته. يقُولُ: «. فإنَّني أجدُ من السهُولة ومُواتاة الكلام في مواقف الخطابة مالا أجدُه في مواضع الكتابة، ثُمَّ جاءت العادةُ والمرانُ فأحكَمَا ذلك في طبعي، ومَرَدُ ذلك في نفسي، وفي حُكمي إلى أنَّني أجدُني في

---

[6]- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربيَّة، ص 115.

الخطابة مأخوذا بالبديهة، وهي لا تَدَعُ المجالَ للرَّوِيَّة، والتَّحكيك وعرض الأساليب واختيار أحسنها وقد يُعينُ المُرتجلَ على ارتجاله، شُعُورُه بأنَّ الارتجالَ مصحُوبٌ بالعُذر، وأنَّ صُورَ الكلام وألفاظه أعراضٌ تنقضي، فلا يستطيعُ السَّامعُ أن يُحاسبَ على دقائقها، ولا تبقى من المحاضرة إلَّا الصُورةُ الكليَّةُ المُجملةُ. وليست الكتابةُ كذلك.."[7]، وأثناء إقامة "الإبراهيمي" بمصر.. في فترة الخمسينات، تقدَّم مرَّة لإلقاء مُحاضراته على طلبة قسم التَّاريخ، وكان موضوعُها الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيثُ يقُولُ: " ألقيتُ هذه المُحاضرات ارتجالا في أيَّامها على تلامذة قسم التَّاريخ في المعهد. وكانت إدارةُ المعهد -جريا على أصُولها- أشارت في رسالتها إليَّ بكتابة المُحاضرات لتطبعها وتُوزِّعها على الطلاب، وليس من عادتي أن أكتبَ وأُلقيَ من المكتُوب."[8]، ومن ثمَّ فإنَّ حياة الإبراهيمي الحركية، والظروف الصعبة التي أحاطت به، وما تخللها من متابعات وتضييق، لم تكن لتسمح له أن يتفرغ للكتابة والطبع والنشر، يقول: "فقد ساهمتُ بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعدني الفراغ، ولاوجود المطابع في الجزائر على طبعها."[9] وهنا ينبغي أن نشير إلى أنَّ "الإبراهيمي" لم يكُن يعمدُ إلى كتابة خُطبه ومحاضراته التي يُلقيها إلَّا تحت إلحاح بعض أصحاب الصُحُف لطبعها ونشرها بين القُرَّاء والنَّاس مكتُوبة، غير أنَّ عمليَّة إعادة الخطبة كتابة يُفقدُها الكثيرَ من حرارة المناسبة والموقف، كما يُفقدُها التَّفاعلَ التَّلقائي، والتَّجاوبَ النَّفسيَّ مع الجمهُور ممَّا يُعدُ من أبرز سمات الخطبة، إلى جانب أنَّ كتابة الخطبة تُجرِّدُها من عاملي التَّأثير والتَّأثر بين الخطيب والجمهُور، الأمرُ الذي يُمكن أن يُحوِّلها إلى نصٍّ، أو بنية قابلة للتَّأمل والتَّفكير من قبل المُنتج والمتلقِّي على حدٍّ سواء، وفي هذا السِّياق أشار "الإبراهيمي" إلى موقفه من هذه العمليَّة، حينما أعاد صياغة خطاب، كان قد ألقاهُ، بقوله: "وأنا أبرأُ من

7- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربيّة، ص 116.
8- المرجع نفسه، ص 116.
9- المرجع نفسه، ص45.

ادّعاء مُحاذاته كما أُلقيَ ارتجالا في ألفاظه ومعانيه.."[10]. وهو ما يؤكّد جري "الإبراهيمي" على الأسلوب الارتجالي من جهة، وامتلاكه ناصية القول، وتحكمه في ضروب الكلام، ومقدرته العجيبة في تصريفه حيثُ يشاء، وتقليبه على جميع وجوهه، دون أن يُصيب أسلوبَه ضعفٌ أو فُتُورٌ.

يقُولُ أحدُهم: "إنَّ الإبراهيمي ألقى خطبة مُرتَجَلَة في دمشق في الخمسينات، تحت عنوان" الله والذّرة" ولم يكُن الحديثُ عن الذرّة يومئذ مألُوفا على الأسماع، وقد حضر هذه الخُطبةَ جمعٌ من العلماء، وامتدّت هذه الخطبةُ ما يربُو عن السّاعتين والشّيخُ ما يزالُ واقفا يتناوب الرّاحةَ بين رجليه وعصاه، والنّاسُ من حوله مشدُوهُون إليه، وكأنّهم يتفرّجُون على ألعاب ساحر ماهر، وما إن انتهى الشّيخُ من خطبته حتّى قام من وسط الحاضرين الأستاذ "عز الدّين علَم الدّين التّنُوخي"، وكان من العلماء المُتفتّحين يكرَهُ شُيُوخَ العمائم والكتب الصّفراء، وطلب من الإبراهيمي أن يسمح له بتقبيله تقديرا لشخصه، واعترافا بعلمه وسُموّ مقامه [11].

وكان "البشير الإبراهيمي" محلّ إكبار وإعجاب من قبل مشايخ وعلماء عصره في الحجاز والشّام ومصر والعراق، وها هو الأستاذ "عاصم البيطار" يقولُ عنه: ". كان الإبراهيمي رحمه اللهُ إذا تحدّث اعتدل، وتوهّجت عيناهُ، وانشرح صدرُهُ، وانطلق لسانُه يتدفقُ بالدرُر من محفُوظه قرآنا وحديثا، شعرا ونثرا، مُرتجلا الخطبة بالسّاعات فلا يُصيبُهُ التّعبُ، ولا ينحرفُ عن الموضوع مهما تشعّبت به أطرافُهُ، يستطردُ ما يشاءُ، ثُمّ يعُودُ إلى حيثُ توقّف، وكأنّه يقرأُ في كتاب، كان قويّ الذاكرة يحرص على أن يكُون علمُه حاضرا إن غابت الكتبُ."[12].

10- محمد العيد تاورتة، نثر البشير الإبراهيمي، 1929-1939، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1980، ص 584.

11- انظر المرجع السابق، ص586.

12- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربيّة، 117.

وهذا - لعمري-شاهدٌ قويٌ، يكشفُ المكانة المرمُوقة الَّتي يتبوَّأها الإبراهيمي في فنَّ القول وتدبيج الكلام، بفضل سعة ثقافته، وغزارة معارفه، وقُوَّة عارضته، وفصاحة لسانه، الأمر الَّذي جعله يسحرُ النَّاس ببيانه، ويملك شغافَ قُلُوبهم، ويؤثِّرُ فيهم أيَّما تأثير. إنَّه خطيبٌ مُفوَّهٌ لَسنٌ، استوفى شُروط الخطيب النَّاجح، وتوفَّرت في خطبه كلَّ الخصائص الفنَّية والجمالية التي تُبوَّأها مكانة مرموقة في دنيا الأدب ولعلَّ الخصائص التي أشرنا إليها سابقا، هي قوام الخطابة وأساسها، ومن ثمَّ فإنَّ الإخلال بهذه المقوِّمات، هو ما يُفسدها، ويُفقدها ماهيتها، لأنَّ "الأصل في الخطبة أن تُلقى لكي يستمع إليها النَّاسُ، لا أن تُكتب فيطالعها القُرَّاءُ."[13]، ومن ثمَّ فإنَّ غياب هذه الخصائص في الخطبة، يجعلها أقربَ إلى فنَّ المقالة التي تشترك معها في الجودة اللغويَّة، والتَّأنق في الأسلوب.

يقول "محمد البشير الإبراهيمي "في خطبة ألقاها غداة افتتاح مسجد ومدرسة بقرية" الحنايا" بتلمسان، بعد عبارات التَّحميد والتَّمجيد، والثَّناء على الله، والصَّلاة والتَّسليم على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: " إنَّني كُلَّما استعرضتُ حالَ هذه الأمَّة في فكري، أو عرضت نفسَها على عينيَّ قصدا في المحافل، أو عفوا في المجامع والأسواق، تلُوحُ لخاطري آيةٌ من كتاب الله تنطقُ بسننه المُطَّردة في الأمم والقرون، وقد لاح لي عندما اعترضتني هذه الجُموعُ الحاشدة، بل هذه الوفود الرَّاشدة في أقصى القرية، آيةٌ هي من دلائل قدرة الله على البعث الأخير، ومن الحجج الدَّامغة على منكريه، ولكنَّها - مع ذلك - قريبةُ الحضور في أذهان المتفائلين مثلي بالبعث الأوَّل في هذه الحياة الدنيا، تلك الآية هي قولُه تعالى: "قال من يُحي العظام وهي رميمٌ، قل يُحيها الذي أنشأها أوَّل مرَّة، وهو بكُلِّ خلق عظيم"[14]. لعلَّ أوَّل ما يلفت الانتباه في خطب "الإبراهيمي" هو افتتاحُها بحمد الله والصلاة

---

[13]- محمد عوض محمد، محاضرات عن فنَّ المقالة الأدبيَّة، الهيئة المصرية العامَّة للتَّأليف والنَّشر، د ط، 1968، ص 9.

[14]- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص235.

والسَّلام على رسول الله، والثَّناء على الصَّحابة والتَّابعين، جريا على تقاليد الآداب الإسلامية.

ونلحظ في النَّص الذي بين أيدينا أنَّ الإبراهيمي، يستهل خطبته بعبارات تتردَّدُ كثيرا في خطبه نحو قوله: "أيها الإخوانُ، أيها الأبناءُ، أيها النَّاسُ، إخواني الأعزَّاء على سبيل التَّنبيه وشدِّ الأذهان، وتهيئة النفوس للموضوع، والغاية التي يرمي إليها، ومراعاة مبدأ موافقة الكلام لمقتضى الحال، فالمناسبة هي افتتاح مسجد ومدرسة بالحنايا"، وهو من دون شكَّ عملٌ عظيمٌ يندرج ضمن الأهداف الكبرى التي ما فتئت الحركةُ الإصلاحيَّة تنبري لها، وتنافح عنها وتسعى جاهدة لتحقيقها، وثمرةٌ طيِّبةٌ لبذرة صالحة، من غرس أصيل ثابت، يُؤتي أُكُلَه كُلَّ حين، ممتدَّ الجذور في أعماق التَّاريخ، وهو هذا اللَّفيف الصَّالح من أبناء من أبناء المجتمع الجزائري، الَّذين جمعهُم هذا العملُ الصَّالحُ الطَّيِّبُ، رُغم تجهم الأحداث، وقساوة الظروف، ومن ثمَّ وجدنا يستلهم المعاني، ويقتبس الأفكار من نصوص القرآن معتمدا على ثقافته الموسوعية التي تغترف من التراث العربي والإسلامي، فليس عجيبا أن يتوسَّم الإبراهيمي خيرا في أبناء الجزائر، والتفاؤل بمستقبلهم، وقابليتهم للانبعاث والنهوض والتَّوثب، مستحضرا سُنَّة الله في خلقه، حين يأخذون بأسباب الحياة العزيزة الكريمة، ونراه يربط في انسجام بين آية البعث الواردة في القرآن وآية الانبعاث في الدنيا، في ظلِّ تشبعه بالإسلام، وإيمانه الرَّاسخ بنواميس الكون وجرثومة الدِّين، وها هو يقول: " لاحت لي آيةُ البعث من القرآن، عندما لاحت لي آيةُ الانبعاث منكم، فأَجَلتُ بصيرتي في الأولى، عندما أجَلتُ بصيرتي في الثَّانية فما زادت الثَّانيةُ الأولى إلَّا تمكينا وتثبيتا.. أيها الإخوانُ، أيها الأبناءُ، إنَّ موت الأُمم، وحياة الأمم، لفظان مطروقان مستعملان في نصابهما من الوضع اللغوي، كموت الأرض بالقحط وحياتها بالغيث، لا ينبُو بهما ذوقٌ، ولا منطقٌ ولا فهمٌ، وإنَّ معناهما لأوسعُ وأجلُ من معنى حياة الفرد، وموتُ الفرد هذه حياةٌ محدودةٌ،

وموتٌ لا رجعة بعده إلّا في اليوم الآخر، وتلك حياةٌ ممدودةُ الأسباب ينتابها الضَّعفُ فتُعالجُ، ويلمُ بها المرضُ فتُداوى، ويطرقُها الوهن فتقوى، ويُدركُها الانحلالُ فتشتدُ ويَعرض لها الانتقاصُ فتُرمَّمُ، وتظلم آفاقُها بالجهل فتُنارُ بالعلم.."[15]. لاشكَّ أنَّ من يتأمَّل نصَّ الخطبة، يدرك احتفاء البشير الإبراهيمي بالخصائص الأدبية، وتأنقه في أساليب التَّعبير والاهتمام بجمال الصِّياغة، وقوَّة البيان، فأفكارُه متجانسة، ومعانيه متواردة، وجُملُه قصيرةٌ مترادفةٌ ولغتُه رصينةٌ محكمةٌ، قائمةٌ على الاشتقاق والترادف، والأضداد والتَّجانس، واستخدام ألوان البيان الذي هو أخصبُ وأقوى الأدوات لتصوير الأحاسيس، وتجسيد العواطف، وترجمة الأفكار والتَّجارب، وقد كان "عُمدتَهُ في تفصيل المُجمل، وتقييد العام، وتبسيط المُركَّب، وتجسيم المُجرَّد"[16].

والنَّص كما نلاحظ لا يخلُو من التَّكرار المُفيد والتَّضاد، بغرض توكيد الفكرة وإيضاحها، نحو قوله:" موت الأمم، حياة الأمم، موت الأرض بالقحط، وحياتها بالغيث، موت الفرد، حياة الفرد حياة ممدودة، حياة محدودة." وكأنِّي به يتمثلُ قول الشَّاعر: ضدَّان لمَّا استُجمعا حسُنا... والضدُ يُظهرُ ضدَّه الضدُ

وكثيرا ما يُفضي به الاستطرادُ إلى الإطناب والاسترسال المُطوَّل، في مثل قوله: "ينتابها الضَّعفُ فتُعالجُ، ويلم بها المرضُ فتُداوَى، ويطرقها الوهن فتقوى، ويُدركُها الانحلال فتشتدُ، ويعرض لها الانتقاص فتُرمَّم، وتظلم آفاقُها بالجهل فتُنارُ بالعلم"

كما عرض الخطيبُ أفكارَهُ في مقام السَّرد والتَّقرير بأسلوب خبري، في حين اصطنع الأسلوب الإنشائي في موضع النصح والتَّوجيه، نحو قوله: ".. عُدُوا هذا اليومَ فاتحة لأيام علميَّة أزهرَ وأعطر، وأفخمَ وأضخمَ، عُدُوهُ كالبسملة من لوح

15- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص235.
16- عبد الرَّحمان شيبان، الإمام الإبراهيمي، مجَّلة الثَّقافة، العدد 87، وزارة الثَّقافة والسِّياحة، الجزائر، ماي 1985، ص74.

القارئ عُدوهُ مُقدِّمة لكتاب مُتعدِّد الأسفار انفخُوا فيه من الأعمال لا من الآمال، اجعلُوه نموذجا لأيَّام المستقبل، وطالعا من طوالع سُعُودها وأعيدكم أن يقصر بكُم النَّظرُ فتجعلُوهُ ختاما لأيَّامكم القريبة..."[17]. إنَّ هذا النَّص على قصره إلَّا أنَّه يقوم شاهدا على احتفاء الإبراهيمي بأساليب البيان، من خلال انتقاء الألفاظ الجزلة والعبارات الفخمة الضخمة، واستخدام السَّجع والجناس، والاشتقاق، وما إلى ذلك من أساليب التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة.

وفيما يلي مقاطع من نصَّ خطاب، كان "البشير الإبراهيمي" قد ألقاهُ على شرف مأدبة أقامتها شعبةُ جمعية العلماء المسلمين بباريس، حضرها وفودٌ وضُيوفٌ عرب، وكان ذلك سنة اثنين وخمسين ألف وتسعمائة، التي تمثَّل مرحلة تاريخية ضمن إرهاصات الثَّورة التَّحريريَّة، عام أربعة وخمسين تسعمائة وألف، يقول :" حضرات الإخوان، هذه ليلةٌ ارتفعت فيها الكُلَفُ، وغاب عنها العواذلُ، وغفل عنها الرُقباءُ - إن شاء الله- فاسمحُوا لي أن أخرج عن الوضع المُتعارف في رُسُوم الخطاب، فأنا بصفتي رجلا مسلما دينيًا، أُمثِّلُ الإسلام في بساطته وسماحته واعتباراته الروحيَّة يحلُو لي أن أخاطبكُم بما جاء به الإسلامُ في آدابه الرَّاقية، ومُثُله العليا وهو وصفُ الأُخُوَّة.."[18]. في هذه المقدِّمة ينطلق الإبراهيمي من المناسبة العظيمة التي اجتمع فيها الإخوانُ على غير موعد في ديار فرنسا، لتطارح الأفكار، وتوحيد الأهواء، وجمع الشَّمل، مخاطبا الحضور بلغة الإسلام، وآدابه السَّامية، وقيمه الرَّفيعة، ثُمَّ يواصل "الإبراهيمي" حديثه قائلا: "فأنا حين أخاطب إخواني الكرام الذين أتاح لي الحظُ السَّعيدُ أن أقف أمامهم في هذه اللَّحظة، لا يحلُو لي إلَّا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل، وهو وصفُ الأُخوَّة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسَنا وكأنَّنا حبَّات انقطع سلكُها فانتثرت، فأصبحت كُلُ حبَّة فيها في كفٍّ لا قط

17- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص238.
18- المصدر السابق، ص379.

وهذا - لعمري-شاهدٌ قويٌ، يكشفُ المكانة المرمُوقة الَّتي يتبوَّأها الإبراهيمي في فنَّ القول وتدبيج الكلام، بفضل سعة ثقافته، وغزارة معارفه، وقُوَّة عارضته، وفصاحة لسانه، الأمر الَّذي جعله يسحرُ النَّاس ببيانه، ويملك شغافَ قُلُوبهم، ويؤثِّرُ فيهم أيَّما تأثير. إنَّه خطيبٌ مُفوَّهٌ لَسنٌ، استوفى شُروط الخطيب النَّاجح، وتوفَّرت في خطبه كلَّ الخصائص الفنَّية والجمالية التي تُبوَّأها مكانة مرموقة في دنيا الأدب ولعلَّ الخصائص التي أشرنا إليها سابقا، هي قوام الخطابة وأساسها، ومن ثمَّ فإنَّ الإخلال بهذه المقوِّمات، هو ما يُفسدها، ويُفقدها ماهيتها، لأنَّ "الأصل في الخطبة أن تُلقى لكي يستمع إليها النَّاسُ، لا أن تُكتب فيطالعها القُرَّاءُ."[13]، ومن ثمَّ فإنَّ غياب هذه الخصائص في الخطبة، يجعلها أقربَ إلى فنَّ المقالة التي تشترك معها في الجودة اللغويَّة، والتَّأنق في الأسلوب.

يقول "محمد البشير الإبراهيمي "في خطبة ألقاها غداة افتتاح مسجد ومدرسة بقرية" الحنايا" بتلمسان، بعد عبارات التَّحميد والتَّمجيد، والثَّناء على الله، والصَّلاة والتَّسليم على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: " إنَّني كُلَّما استعرضتُ حالَ هذه الأمَّة في فكري، أو عرضت نفسَها على عينيَّ قصدا في المحافل، أو عفوا في المجامع والأسواق، تلُوحُ لخاطري آيةٌ من كتاب الله تنطقُ بسننه المُطَّردة في الأمم والقرون، وقد لاح لي عندما اعترضتني هذه الجُموعُ الحاشدة، بل هذه الوفود الرَّاشدة في أقصى القرية، آيةٌ هي من دلائل قدرة الله على البعث الأخير، ومن الحجج الدَّامغة على منكريه، ولكنَّها - مع ذلك - قريبةُ الحضور في أذهان المتفائلين مثلي بالبعث الأوَّل في هذه الحياة الدنيا، تلك الآية هي قولُه تعالى: "قال من يُحي العظام وهي رميمٌ، قل يُحيها الذي أنشأها أوَّل مرَّة، وهو بكُلِّ خلق عظيم"[14]. لعلَّ أوَّل ما يلفت الانتباه في خطب "الإبراهيمي" هو افتتاحُها بحمد الله والصلاة

13- محمد عوض محمد، محاضرات عن فنَّ المقالة الأدبيَّة، الهيئة المصرية العامَّة للتأليف والنَّشر، د ط، 1968، ص 9.
14- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص235.

والسَّلام على رسول الله، والثَّناء على الصَّحابة والتَّابعين، جريا على تقاليد الآداب الإسلامية.

ونلحظ في النَّص الذي بين أيدينا أنَّ الإبراهيمي، يستهل خطبته بعبارات تتردَّدُ كثيرا في خطبه نحو قوله: "أيها الإخوانُ، أيها الأبناءُ، أيها النَّاسُ، إخواني الأعزَّاء على سبيل التَّنبيه وشدَّ الأذهان، وتهيئة النفوس للموضوع، والغاية التي يرمي إليها، ومراعاة مبدأ موافقة الكلام لمقتضى الحال، فالمناسبة هي افتتاح مسجد ومدرسة بالحنايا"، وهو من دون شكَّ عملٌ عظيمٌ يندرج ضمن الأهداف الكبرى التي ما فتئت الحركةُ الإصلاحيَّة تنبري لها، وتنافح عنها وتسعى جاهدة لتحقيقها، وثمرةٌ طيِّبةٌ لبذرة صالحة، من غرس أصيل ثابت، يُؤتي أُكُلَه كُلَّ حين، ممتدَّ الجذور في أعماق التَّاريخ، وهو هذا اللَّفيف الصَّالح من أبناء من أبناء المجتمع الجزائري، الَّذين جمعهُم هذا العملُ الصَّالحُ الطَّيِّبُ، رُغم تجهم الأحداث، وقساوة الظروف، ومن ثمَّ وجدنا يستلهم المعاني، ويقتبس الأفكار من نصوص القرآن معتمدا على ثقافته الموسوعية التي تغترف من التراث العربي والإسلامي، فليس عجيبا أن يتوسَّم الإبراهيمي خيرا في أبناء الجزائر، والتفاؤل بمستقبلهم، وقابليتهم للانبعاث والنهوض والتَّوثب، مستحضرا سُنَّة الله في خلقه، حين يأخذون بأسباب الحياة العزيزة الكريمة، ونراه يربط في انسجام بين آية البعث الواردة في القرآن وآية الانبعاث في الدنيا، في ظلَّ تشبعه بالإسلام، وإيمانه الرَّاسخ بنواميس الكون وجرثومة الدِّين، وها هو يقول: " لاحت لي آيةُ البعث من القرآن، عندما لاحت لي آيةُ الانبعاث منكم، فأَجَلتُ بصيرتي في الأولى، عندما أجَلتُ بصيرتي في الثَّانية فما زادت الثَّانيةُ الأولى إلَّا تمكينا وتثبيتا.. أيها الإخوانُ، أيها الأبناءُ، إنَّ موت الأُمم، وحياة الأمم، لفظان مطروقان مستعملان في نصابهما من الوضع اللغوي، كموت الأرض بالقحط وحياتها بالغيث، لا ينبُو بهما ذوقٌ، ولا منطقٌ ولا فهمٌ، وإنَّ معناهما لأوسعُ وأجلُ من معنى حياة الفرد، وموتُ الفرد هذه حياةٌ محدودةٌ،

وموتٌ لا رجعة بعده إلّا في اليوم الآخر، وتلك حياةٌ ممدودةُ الأسباب ينتابها الضَّعفُ فتُعالجُ، ويلمُ بها المرضُ فتُداوى، ويطرقُها الوهن فتقوى، ويُدركُها الانحلالُ فتشتدُ ويَعرض لها الانتقاصُ فتُرمَّمُ، وتظلم آفاقُها بالجهل فتُنارُ بالعلم.."[15]. لاشكَّ أنَّ من يتأمَّل نصَّ الخطبة، يدرك احتفاء البشير الإبراهيمي بالخصائص الأدبية، وتأنقه في أساليب التَّعبير والاهتمام بجمال الصَّياغة، وقوَّة البيان، فأفكارُه متجانسة، ومعانيه متواردة، وجُملُه قصيرةٌ مترادفةٌ ولغتُه رصينةٌ محكمةٌ، قائمةٌ على الاشتقاق والترادف، والأضداد والتَّجانس، واستخدام ألوان البيان الذي هو أخصبُ وأقوى الأدوات لتصوير الأحاسيس، وتجسيد العواطف، وترجمة الأفكار والتَّجارب، وقد كان "عُمدتَهُ في تفصيل المُجمل، وتقييد العام، وتبسيط المُركَّب، وتجسيم المُجرَّد"[16].

والنَّص كما نلاحظ لا يخلُو من التَّكرار المُفيد والتَّضاد، بغرض توكيد الفكرة وإيضاحها، نحو قوله:" موت الأمم، حياة الأمم، موت الأرض بالقحط، وحياتها بالغيث، موت الفرد، حياة الفرد حياة ممدودة، حياة محدودة." وكأنَّي به يتمثلُ قول الشَّاعر: ضدَّان لمَّا استُجمعا حسُنا... والضدُ يُظهرُ ضدَّه الضدُ

وكثيرا ما يُفضي به الاستطرادُ إلى الإطناب والاسترسال المُطوَّل، في مثل قوله: "ينتابها الضَّعفُ فتُعالجُ، ويلم بها المرضُ فتُداوَى، ويطرقها الوهن فتقوى، ويُدركُها الانحلال فتشتدُ، ويعرض لها الانتقاص فتُرمَّم، وتظلم آفاقُها بالجهل فتُنارُ بالعلم"

كما عرض الخطيبُ أفكارَهُ في مقام السَّرد والتَّقرير بأسلوب خبري، في حين اصطنع الأسلوب الإنشائي في موضع النصح والتَّوجيه، نحو قوله: ".. عُدُوا هذا اليومَ فاتحة لأيام علميَّة أزهرَ وأعطر، وأفخمَ وأضخمَ، عُدُوهُ كالبسملة من لوح

15- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص235.
16- عبد الرَّحمان شيبان، الإمام الإبراهيمي، مجَلة الثَّقافة، العدد 87، وزارة الثَّقافة والسَّياحة، الجزائر، ماي 1985، ص74.

القارئ عُدوهُ مُقدّمة لكتاب مُتعدّد الأسفار انفخُوا فيه من الأعمال لا من الآمال. اجعلُوه نموذجا لأيّام المستقبل. وطالعا من طوالع سُعُودها وأعيدكم أن يقصر بكُم النّظرُ فتجعلُوهُ ختاما لأيّامكم القريبة.."[17] إنّ هذا النّص على قصره إلّا أنّه يقوم شاهدا على احتفاء الإبراهيمي بأساليب البيان. من خلال انتقاء الألفاظ الجزلة والعبارات الفخمة الضخمة. واستخدام السّجع والجناس. والاشتقاق. وما إلى ذلك من أساليب التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة.

وفيما يلي مقاطع من نصّ خطاب. كان "البشير الإبراهيمي" قد ألقاهُ على شرف مأدبة أقامتها شعبةُ جمعية العلماء المسلمين بباريس. حضرها وفودٌ وضُيوفٌ عرب. وكان ذلك سنة اثنين وخمسين ألف وتسعمائة. التي تمثّل مرحلة تاريخية ضمن إرهاصات الثّورة التّحريريّة. عام أربعة وخمسين تسعمائة وألف. يقول :" حضرات الإخوان. هذه ليلةٌ ارتفعت فيها الكُلَفُ. وغاب عنها العواذل. وغفل عنها الرُقباءُ - إن شاء الله- فاسمحُوا لي أن أخرج عن الوضع المُتعارف في رُسُوم الخطاب. فأنا بصفتي رجلا مسلما دينيا. أُمثّل الإسلام في بساطته وسماحته واعتباراته الروحيّة يحلُو لي أن أخاطبكُم بما جاء به الإسلامُ في آدابه الرّاقية. ومُثُله العليا وهو وصفُ الأُخُوّة.."[18]. في هذه المقدّمة ينطلق الإبراهيمي من المناسبة العظيمة التي اجتمع فيها الإخوانُ على غير موعد في ديار فرنسا. لتطارح الأفكار. وتوحيد الأهواء. وجمع الشّمل. مخاطبا الحضور بلغة الإسلام. وآدابه السّامية. وقيمه الرّفيعة. ثُمّ يواصل "الإبراهيمي" حديثه قائلا: "فأنا حين أخاطب إخواني الكرام الذين أتاح لي الحظُ السّعيدُ أن أقف أمامهم في هذه اللّحظة. لا يحلُو لي إلّا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل. وهو وصفُ الأُخوّة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا وكأنّنا حبّات انقطع سلكُها فانتثرت. فأصبحت كُلّ حبّة فيها في كفّ لا قط

[17]- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص238.
[18]- المصدر السابق، ص379.

...أيها الإخوانُ المُتلاقُون على هوى واحد هو الوطنُ الجامعُ، المُتعبَّدُون بعقيدة واحدة هي تحريرُ هذا الوطن الجامع، الطَّالعُون كالكواكب من أفق واحد، هو هذا الشَّرقُ الذي أطلعت سماؤُه الشَّمسَ والقمرَ وأطلعت أرضُه الأنبياءَ والحُكماءَ.."[19].

لعلَّ أوَّل ما نلحظه في هذه الكلمة أنَّ "الإبراهيمي" في موقف الإشادة بهذا الجمع المهيب والتَّنويه بهذا الجمع المُوحَّد، والموكب المُتآخي، مُركِّزا على رابط الأُخُوَّة، وأثرها في جمع الشَّمل، وتوحيد الأهداف والجهود بين أبناء الأمَّة العربيَّة الإسلامية ، ثمَّ نراه يلتفتُ إلى إبراز عوامل هذه الوحدة، وسبل تحقيقها، فيلخصها في حُبِّ الوطن الجامع، والدِّفاع عنه لتحريره من المستعمرين الغزاة ،بلغة الأديب البارع الذي يحسنُ التَّصرف في أساليب الكلام، وتنميق العبارة وإجادة السَّبك ومتانة الأسلوب، ورصانة اللغة، والقدرة على التَّمثيل وتشخيص المعاني واستحضار الشَّواهد، والتَّنويع في الأسلوب، دون أن ينال أسلوبه ضعفٌ، أو ركاكةٌ، ودون تكلف واسمعه حين يقول في الخطبة نفسها: "أحييكم باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وباسم شعبتها المركزية بباريس، تحيَّة العروبة التي هي أكرم ما أنجبت البشرية من سلائل، وتحيَّة الإسلام الذي هو أصفى ما تشظَّت عنه صَدَفةُ الوحي من لآلئ، وتحيَّة الشَّرق الذي اعتقد مخلصا أنَّكم أزكى نباته، وأنَّكم الصَّفوة المختارة من بُناته، وأحيِّيكم باسم الجزائر العربية المسلمة المجاهدة الصَّابرة، التي هي غصن فينان من دوحة الإسلام، وفرعٌ ريانٌ من شجرة العروبة وزهرةٌ فوَّاحةٌ من رياض الشَّرق.."[20].

إنَّ الإبراهيمي حين يعرض لقضايا العرب والمسلمين، يتجاوز الحدود القطرية والإقليمية الضيِّقة التي تحُول بين المرء وأخيه، ومن ثمَّ نراه يعمد إلى استحضار التَّاريخ لتجلية الصورة، وإعطاء القدوة، وأخذ العبرة، بأسلوب لا

19- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص 380.
20- المصدر السابق، ص 380.

يعتريه ضعفٌ ولا يعتوره فُتُور، ولكنَّها سبائك غاية في النَّظم وديباجة جميلة موشَّحة بالبيان في غير تكلف ولا تعمل ولا تصنع، كأنَّها الماء الزلال، أو السحر الحلال، تتهادى في جلال، تائهة في دلال، ترفل في كمال. إنَه يبيِّن مظاهر التَّواصل الحضاري والرَّوابط التَّاريخية، وأواصر الأخوة التي تجمع بين أبناء الأمَّة العربية والإسلاميَّة التي تُجسِّدها اللغة العربية، والتاريخ المشترك، والإسلام الجامع بين المغرب العربي، الذي تمثَّل الجزائر إحدى لبناته، والمشرق، وهي جزء من بنائه. وتتَّضح هذه الصورة أكثر في قوله:"...ومازالت متَّصلة بالشَّرق العربي، تستمد منه القوَّةَ والفُتوَّةَ، ومازالت متَّصلة بالشَّرق الإسلامي، تَستصبحُ بأنواره، وتتغنَّى بأمجاده، وتعيشُ على ذكرياته. "[21].

إن خطبه نموذج للخطابة الرَّاقية في أسلوبها، الخصبة في أفكارها، المتجدِّدة في لغتها، الغزيرة في معانيها، الجميلة في صياغتها، تعتمد في عرضها على تزاحم المعاني، وتدافع الأفكار، وكأنَّ الرجل يغترف من بحر، بفضل ما أُوتي من ثقافة موسوعية أتاحت له أن يستقي من معين الموروث الأدبي والإسلامي الشَّواهد والقرائن والأدلَّة على سبيل الإقناع والتَّأثير، وربط الماضي بالحاضر، لبناء المستقبل وتحقيق النَّهضة الشَّاملة، والتَّحرر من المستعمر، وفي هذا السِّياق يوردُ نماذج لأعلام وعظماء في تاريخ الإسلام من الأبطال الفاتحين، وحملة رسالة الإسلام الذين حرَّرُوا اللِّسان والإنسان، ونشرُوا الدِّين، وأشاعُوا اليقين في مشارق الأرض ومغاربها للاقتداء بسيرهم، والسَّير على نهجهم، واقتفاء آثارهم وأعمالهم الخالدة فنراه يقول:"... وهي على الصِّلة بالشَّرق متينة، كانت ومازالت متمسِّكة بحبله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ومازالت قائمة على غرس عُقبة والمهاجر، وحسَّان بن شريك، بالتَّعهد والحفظ، ومازالت ناطقة بلسان هلال بن عامر بن صعصعة منذ طغت موجةُ أبنائه عليها.. تلك الموجةُ التي يُسمِّيها المُورِّخُ

[21]- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج 3، ص 380.

المجحفُ إغارة على الأوطان، وتخريبا للعمران، ويُسمِّيها المؤرِّخُ المنصفُ إنارة للأذهان وتعريبا للِّسان."[22].

لقد كان "الإبراهيمي" يتمثَّلُ العروبة والإسلام، ويربط بينهما ربطا عضويا، باعتبار أن العربيَّة هي لسانُ الإسلام ووعاؤه، ولا يزالُ يعتمد في عرض أفكاره على الإجمال ثمَّ التَّفصيل، ويعتد بالمقارنات والموازنات، وإيراد اللَّفظ وضدَّه، واللجوء إلى الاشتقاق والتَّوليد، وغيرها من أساليب التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، وهي خصائص تذكِّرنا بفطاحل اللغة العربية، الَّذين امتلكوا ناصيتها، فجادت قرائحُهم بأرقى النصوص وأجملها وأجودها، نحو قوله:" أيها الإخوانُ لم يُؤثِّر الفاتحون المتعاقبون على الشَّمال الإفريقي، ولا أثَّرت الأديانُ الرَّاحلةُ إليه، جزءا ممَّا أثَّر الإسلامُ وأثَّرت العربيَّةُ، ذلك أنَّ الفاتحين لهذا الوطن قبل الإسلام، إنَّما جاؤوه بدين القوَّة وشريعة الاستغلال، أمَّا الإسلام فقد جاء بالعدل والإحسان، وجاء وافيا بمطالب الروح ومطالب الجسم، وجاء لإقرار الإنسانية بمعناها الصَّحيح في هذه الأرض.."[23] كما يدعو الإبراهيمي في صراحة ووضوح إلى ضرورة الالتفات إلى الماضي العريق، والمجد التَّليد للاسترشاد به والاقتباس من مآثره، وترسم خطى رجالاته وعظمائه، لبناء الذات، ومواجهة المصاعب والتَّحدِّيات وصدَّ التَّيارات الوافدة، والمذاهب المستوردة، وهو ما يتجلَّى في قوله :".. إنَّ القوم يحتقرون حاضرنا الذي أوصلونا إليه، ويعتقدون أنَّنا صبيان، فيتذكرون ماضيهم ليبنوا عليه حاضرهم ومستقبلهم، ويُنكرون علينا ذلك، فمن حقَّنا، بل من واجبنا أن نعرف ماضينا والرِّجال الذين عمرُوه في ميادين الحياة، فنعرف من هو أبوبكر؟ ومن هو عمر؟، ونعرف ما صنع عقبةُ وحسَّانُ وطارق وموسى وطريف في الغرب، وما صنع المُثنَّى وسعد وخالد وقتيبة في الشَّرق"[24]. إنَّها

22- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج 3، ص 381.
23- المصدر نفسه، ج3، ص 383.
24- المصدر نفسه، ص 384.

نموذج للخطيب الذي لا تأسره المناسبة، ولا ترهنه اللحظة الرَّاهنة، ولكنه رجل نافذ الرؤية ثاقب النَّظرة، حاضر البديهة، قوي الحافظة، له قدرة عجيبة في استحضار الشَّواهد وإيراد الحجج وتقليب الموضوع على جميع وجوهه، واستيفاء الفكرة، ينتقل بالسَّامع من الماضي، إلى الحاضر ليعرِّج به نحو المستقبل، كأنَّما يقرأ من سفر حُشي علما ومعارف، وأخبارا، وشعرا، وأنسابا، وأياما فيذكِّرك "بسحبان". وهو إلى ذلك حريص على مبدأ الوحدة، لأنَّها أساس القوَّة، يُثمِّن العمل والعلم ويرى فيهما عماد النَّهضة، وقوام كلِّ تَّقدم ورقي، وينبذ الخلافات والعصبيات الهدَّامة التي تقوِّض المجتمعات، وترمي بهم في مهاوي التخلف، والضَّعف، والاندثار، والتَّلاشي، وتزيد العدوَّ قوَّة وتكالبا علينا، ملتمسا الشَّاهد من القرآن الكريم، ومن مأثور الشِّعر، كما يتَّضح في قوله: « كذلك يجب ألَّا نقضي أعمارنا في التَّلاوم، وألَّا نكون كمن قال فيهم القرآن: "وأقبل بعضُهم على بعض يتلاومون" فإذا تلاومنا فليكن ذلك زجرا عن الشَّرِّ، وردعا عن الخلاف، ثم رجوعا سريعا إلى الحقِّ، ولقد نهى شوقي إخواننا المصريين حينما كانوا يتلاومون، فيشغلهم التَّلاوم عن قضيتهم والاستعداد، وبرَّأهم في موقف تجب فيه المؤاخذة الوطنية ليردَّهم إلى سبيل الرَّشاد، فقال: لا يلُم بعضُكم على الخطب بعضا... أيها القومُ، كلُكُم أبرياء.

فلندع اللَّوم والعتاب جانبا، ولنفعل ما يفعله الصَّاحي حين يستيقظ من النَّوم من عزم وتشمير وجدٍّ، فبذلك نلحق القوافل المبكِّرة، لا بالتَّباطؤ والإخلاد ولعن الشَّيطان ومعاودة النَّوم."[25]. إنَّها كلمة لشحذ العزائم، وشحن الهمم، واستنهاض النفوس وتعبئة الطَّاقات، ونبذ الخلافات والنَّعرات لتحرير النفوس والعقول والأوطان وإيقاظ الضَّمائر، وإدراك المعالي.

[25]- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص386.

ثمَّ يتوجَّه الإبراهيمي إلى مخاطبة فئة الشَّباب - وهي فئة شغلت حيِّزا هامًا في أدبه - حاثا إيَّاهم على ضرورة حمل أعباء الأمانة المنوطة بهم، والنهوض بواجباتهم تجاه الأمَّة، لأنَّهم مناط أملها وقوتها الحيوية، ومستودع أمانيها، مستشهدا بقول المتنبي: وأهوى من الفتيان كُلَّ سميذع... كصدر الصَّعدة المُتقوَّم

خطت تحته العيسُ الفلاةَ وخالطت... به الخيلُ كبَّات الخميس العرمرم.

وقد ذهب الأستاذ "محمد الطَّاهر فضلاء" إلى أنَّ الإبراهيمي في فنِّ الخطابة يمثِّل امتدادا لمدرسة البلغاء العرب، بقوله: "أمَّا فنه في الخطابة والكتابة، فيُعد مدرسة قائمة بذاتها، فريدة من نوعها، تذكِّر بمجد العربية في أزهر عهودها، فإذا كتب خلته الجاحظ، وإذا شعر حسبته المتنبِّي، وإذا سجع ظننته سطيحا."[26]

وظل موضوع العربية والإسلام محورا أساسيا في خطب الإبراهيمي، ومدارا لنشاطاته الحثيثة ولطالما نافح عنهما، وغالب من أجل تكريسهما وترسيخهما في النفوس والعقول، وهاهو يقول:" أيها الإخوان إنَّ القوم درسونا وفهمونا، وتيقَّنوا أنَّنا لن نضيع ولن نفنى ما دمنا متمسِّكين بالعرى القويَّة للإسلام، والعربيَّة والشَّرق..."[27]

ومن السِّمات التي انطبع بها خطاب الإبراهيمي، اعتمادُه على آلية المقارنة بالأوضاع المُماثلة عند الشعوب والمجتمعات، وطريقة التَّعامل مع هذه الأحداث والأوضاع، وتصريف الجهود ورسم الخطط لتغييرها، والخلاص منها، وكُلُّ ذلك أدعى إلى الاعتبار، وأقوى على استنهاض الهمم، ونفخ الروح الوطنية والدِّينيَّة لدى الجزائريين، نحو قوله: "...ولنعتبر المُعتدي على جزء منَّا معتديا على جميع الأجزاء، وعدوُ العراق هو عدُوُ مرَّاكش، ولنتذكُر من خصال الأمم ما فعلته إيطاليا في ضمِّ أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا الَّتي لم تنم لها عينٌ في قضيَّة الألزاس

26- محمد الطَّاهر فضلاء، "الإمام الرَّائد البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، ع87، ص 29.
27- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج3، ص 386.

واللورين، ولو أنَّ مُعتديا اعتدى على جزء من انكلترا - وهي كجزيرة العرب - لتداعى الانكليزُ من أطراف الأرض لاسترجاعه، فلمَ لا نكُونُ كذلك؟.."[28]. إنَّها شذراتٌ وومضاتٌ، توضِّحُ لنا بجلاء أنَّ الإبراهيمي مُلَمٌ بتاريخ الأمم، عارفٌ بتطور المجتمعات، مُدركٌ لأسباب النَّهضة، وبناء الحضارة، بصيرٌ بطرق التَّغيير، وأساليب الإصلاح والبناء والتَّوعية، كما تتجلَّى في أسلوبه النَّزعةُ العقليَّة في عرض القضايا، وبحث الموضوعات، على اختلاف أبعادها وآثارها وأهمَّيتها وهي نزعةٌ تقومُ على الحجاج، والتَّحليل المنطقي المبني على الاستدلال والموضوعية، والتَّفسير، في مثل قوله: "ليس من سداد الرَّأي أن يُضيِّع الضَّعيفُ وقتَه في لوم الأقوياء، وليس من المُجدي أن يدخل معهم في جدل، إنَّ من تمام معنى اللَّوم أن يتسبَّب في توبة، أو يجُرَّ إلى إنابة، ونحنُ نعلمُ أنَّ القوم لا يتُوبُون ولا يذكُرُون، فالواجبُ أن نلُوم أنفُسَنا على التَّقصير، ونقرعها عن الانقياد لآراء هؤلاء ولإرشادهم... أمَّا لومُنا إيَّاهُم فهو لوم الخرُوف للذئب، وأمَّا طمعُنا في توبتهم فهو طمعُ الخرُوف في توبة الذئب، فإن أردتُم أن تروا المثلَ الخارق من توبة الذئب فقلِّمُوا أظافرَهُ، واهتمُوا أنيابَه، كذلك إن أردتُم توبةَ القويَّ فاحتقرُوا قوَّتَهُ، واحذرُوا أن تكُونُوا زيادة فيها، فإنَّه يتصاغرُ ثُمَّ ينخذلُ ثُمَّ يُساويكم، فإذا هو أقل منكم وأضعفُ... إنَّنا ضُعفاءُ، ومن القُوَّة أن نعترف بأنَّنا ضُعفاءُ، لأنَّ من كتمَ داءَهُ قتلَهُ فمن الواجب علينا أن لا نتعاظم بالكذب، ما دُمنا لا ننَالُ إلَّا الفُتات من مائدة الحياة..."[29].

ولا يزالُ الإبراهيمي في كُلِّ خطبه، يلتفتُ إلى التَّاريخ، ليستقي من معينه، ويفد من ثقافته الأدبيَّة والإسلاميَّة، لتحلية أسلوبه، وتلوينه بآيات البيان، وعناصر الجمال، ووسائل الإمتاع والإقناع. إنَّه واحدٌ من الأعلام المبرَّزين الَّذين ملكُوا ناصية اللغة العربيَّة، فانقادت لهم أزمَّتُها فوعوا أسرارها، وأدركُوا خباياها

---

[28]- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ص 388.

[29]- المصدر نفسه، ج3، ص389.

وجواهرها، وتغذوا بروائعها، إنَّه "إمامٌ في العربية وبلاغتها تفقَّه في أسرارها وتغذى بآدابها، واستنار بقرآنها، حتَّى أقام لنفسه منها مدرسة، تشهدُ بأنَّ العربيَّة ماتزالُ كما كانت في عصورها الذهبيَّة صالحة لأن تكون مدينة العلم والفنِّ والجمال."[30].

إنَّه خطيبٌ بارعٌ مُفوَّهٌ، ومعلِّمٌ كبير، ومُربٌّ عظيمٌ، وأديبٌ بارعٌ ملتزمٌ، وعالمٌ عاملٌ مجاهدٌ ومصلحٌ خبير وملتزمٌ، استطاع أن يطرق كلَّ الموضوعات ويتناول كل القضايا التي كانت تشغل بال الجزائريين، من خلال جهوده الجبَّارة ونشاطاته الجمَّة، وأعماله الجليلة التي كان لها أثر مشهودٌ، ودورٌ بارزٌ، وفضلٌ محمودٌ في الحفاظ على هوِيَّة الشعب الجزائري وثقافته وشخصيته.

وفيما يلي مقطعٌ من نصِّ الخطاب الذي ألقاه "الإبراهيمي" في حفل التَّأبين الَّذي أُقيم بمناسبة الذِّكرى الأربعين لوفاة الدكتور "محمد بن أبي شنَب"، يقول فيه:". ما هذا الجمعُ الحاشدُ، وما هذه الزُمرُ المَحدوَّة، وما للأحياء حُشرُوا في صعيد الأموات جلَّ ما لهذا الفريق الممتاز من إخوان الأدب، وأخدان القلم، وعُشراء البحث ورُضعاء التَّفكير، وأسرة الكتابة والقلم، يظهرُون بهذا المظهر الرَّهيب، وينزعُون بهذا المنزع الغريب، لولا داع دعا، وباعث بعث، وسائق حثَّ فأزعج، بلى ماهذا الحشدُ فوق التُراب إلَّا لقضاء حقَّ عزيز ثوى تحت التُراب، مات محمد فأسف العارفُون لفضله على فضله... وأسف المُثقَّفُون على هذا الوطن البائس أن ينقصف علَمُهُ المفردُ، وواحدُ الآحاد فيه، قبل أن تتحقَّق آمالُه في العلم، أو تتحقَّق آمالُ العلم فيه.."[31].

لعلَّ أوَّل ما نلحظُه في هذا النص، أنه مفعم بنبرة حزينة باكية، طافح بنَفَس عاطفيَّ متأجِّج قويَّ يُنبئُ عن عظم المصاب، وجلال الرزء في فقد " محمد بن أبي شَنَب"، وقد ترجمَ هذا الإحساسَ في جُمل وصيغ بديعة النَّظم، مُحكمة النَّسج

30- محمد الطَّاهر فضلاء، الإمام الرَّائد البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، ع87، ص 49.
31- محمد العيد تاورتة، نثر البشير الإبراهيمي، ص 2.

رصينة، موجزة، ومسجوعةٌ، قائمة على توليد المعاني، واشتقاق صيغ تعبيرية متَّسقة الألفاظ، منسجمة التَّراكيب، أضفت على النَّص حلاوة وطلاوة، ونغما موسيقيا آسرا، حتَّى لكأنَّها قطعة شعريَّةٌ، نحو قوله: إخوان أخدان، عشراء رضعاء، الرَّهيب، القريب...، إلى جانب خاصَّية التَّوليد والتَّجديد في لغت التَّعبير وهي خاصَّية لا تتأتَّى إلَّا للفطاحل الذين أُوتُوا جوامع الكلم، كما في قوله: "داع دعا، باعث بعث، سائق حثَّ فأزعج..". ولستُ أحسبُ "الإبراهيمي" - على وُلُوعه بالسَّجع- أنَّه كان يعمد إلى اصطناعه تكلفا منه، بل كان ينثالُ عليه انثيالا، الأمرُ الذي أضفى على كلامه مَسحة من الجمال الفنِّي، والسَّجع أداةٌ إذا امتلك الكاتبُ زمامَها، وأحسن توظيفَها، كانت قمَّة في البيان وآية في الجمال، وهو ما أشار إليه كثيرٌ من النقاد، كابن الأثير"، وابن أبي الحديد".

والإمام الإبراهيمي واحدٌ من المبرَّزين في امتلاك أساليب اللغة العربيَّة، والمعرفة بفنُونها وطرائق التَّعبير والبيان فيها، والدَّراية بأدوات وعناصر الجمال في صورها "يأتيه السَّجعُ فيُحسنُ مأتاهُ، وينصرفُ عنه فيحلُو مُنصرفُه"[32]، ومَّا لا شكَّ فيه أنَّ عناية الإبراهيمي باللغة، والتَّأنق في أساليبها، قد أدَّى به إلى الاهتمام بجزالة التَّعبير، ورصانة التَّركيب، وفخامة اللَّفظ وحسن السَّبك، ومن ثمَّ نراه يفرط في استعمال التَّرادف والاشتقاق، والإلحاح على الفكرة، والإمعان في الوصف، نحو قوله: "الجمع الحاشد، الزمر المحدُوَّة، الفريق الممتاز، ما هذا الحشدُ، الطَّائفة.. وفي قوله:" مات محمَّد، فعرفت هذه الطَّائفةُ من مات، وعرفت أنَّه مات، مات محمَّد فأسف العارفُون، وأسف المُثقَّفُون. علَمُهُ المُفرد، واحدُ الآحاد فيه. "

---

[32]- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الطبعة الثَّانية، الشَّركة الوطنية للنَّشر والتوزيع، الجزائر، ص 136.

أمَّا التَّنويع في الأساليب، بين الخبر والإنشاء، فهي خاصَّيةٌ ماثلةٌ في خطبه، من باب التَّنبيه مرَّة، والتَّأثير مرَّة أخرى، وموافقة الكلام لمقتضى الحال مرَّة أخرى نحو قوله:" ما هذا الجمع؟ ما لهذا الفريق؟ ما هذا الحشدُ؟"

إنَّ "البشير الإبراهيمي" خطيبٌ لَسنٌ قؤولٌ، قد دانت له الفصاحة، وانقادت له البلاغة، فكان فارسا من فرسان العربيَّة، اجتمع فيه من الحسنات ما تفرَّق في غيره، فكان - بحقٍّ-عصرا وجيلا بل أُمَّة. وفي هذا السِّياق، ذهب "أحمد بن ذياب" إلى القول: "...وإنَّني لم أر في تونس، ولا أعرف في الجزائر، ولم أسمع في خطباء وأدباء وعلماء الأقطار العربيَّة الشَّرقية، الذين ينقُلُ إلينا الأثيرُ أصواتهم، مَن استقامت له طرائقُ التَّعبير، وانقادت له أزمَّة البلاغة وواتته في اللَّسن الطَّلاقة والذَّلاقة واللَّباقةُ والارتجاليات، مثل ما أُوتي الإبراهيمي من كلِّ ذلك."[33]

لقد عالج "الإبراهيمي" مختلف القضايا والموضوعات التي تتَّصل بشؤون الجزائر والعرب والمسلمين عامَّة، وخلَّف رصيدا هائلا من الخطب العصماء التي تمثَّل العربيَّة في أرقى أساليبها فكانت له خطبٌ في الاجتماع والسِّياسة والثَّقافة، والعلم والحريَّة، وحقوق الإنسان، والعدل وغيرها من الموضوعات التي لا تخفى على العلماء الرَّبانيين الهداة، الوعاة الرُّعاة، والدعاة السعاة والبُناة، أمثال البشير الإبراهيمي، ومن الخطب التي برع فيها، الخُطبة الأدبيَّة، وهي "التي تهتمُ بقضايا الفكر والأدب والثَّقافة معا، وتُحقِّقُ النَّاحية النَّفعية في إشباع آفاق المعرفة.."[34]

ويُمكن إيراد بعض النصوص لهذا اللَّون من الخُطبة، كان الإبراهيمي قد ارتجلها في النَّوادي المختلفة، والمهرجانات والمحافل الأدبيَّة والعلميَّة، التي طاف بها أثناء رحلاته إلى بلدان عربيَّة وإسلاميَّة، طالبا للعلم، ومستزيدا من البحث والتَّحصيل، معرِّفا بالقضيَّة الجزائرية، وإسماع صوت الثَّورة التَّحريريَّة في

33- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر،1925-1954، ص 22.
34- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربيَّة، ص128.

الخارج، وكانت تلك المناسباتُ مجمعا للعلماء والأدباء والمثقّفين، ومجالا لتكريم فحول الشعراء والأدباء وملتقى لتكريم العلماء، ففي خطبة ألقاها بمناسبة مهرجان "شوقي" بالقاهرة، أُقيم عام ثمان وخمسين تسعمائة وألف، نراهُ يحتفي -كعادته- بالسَّجع، وقصار الجمل والتَّجنيس، يقول فيها: "..حيَّاكم اللهُ وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تُحيون مآثرها، وتُجدِّدُون مفاخرها وللعربيَّة تُوفُون بعهودها، وتقُومُون بحقُوقها.."[35]، وفي موضع حديثه عن اللغة العربيَّة، نراه يتفنَّنُ في توليد الألفاظ، وتشقيق الكلام، وتدبيج العبارات بصورة مبهرة مدهشة، تنمُ عن براعته في اللغة والأدب، وتُنبىء عن قدرته في التقاط الشَّوارد والأوابد في العربيَّة، حيث يقول: "أيها الإخوةُ الكرامُ، كلَّفني الأستاذ الرَّئيس أن أُحاضر هذا الجمعَ العربيَّ الحاشدَ، بكلمات في ناحية زاخرة من نواحي لغته الجليلة، وجانب عامر من جوانبها الفسيحة، وهو فضلُها على العلم والمدنيَّة، وأثرها في الأمم غير العربيَّة، إشادة بفضل هذه اللغة الشَّريفة، في هذا الاحتفال العلمي ووفاء ببعض حقِّها علينا، وحفزا لهممكم، وأنتم أبناؤُها البررةُ... وإعلانا للمعنى الذي قامت جمعيةُ العلماء بتحقيقه، وهو إحياءُ هذه اللغة، وإحياءُ الدِّين الذي ترجمت محاسنَهُ، واضطلعت بحمل أسراره... أيها الإخوةُ، انشقَّت اللغةُ العربيَّةُ من أصلها السَّامي في عصور متوغِّلة في القدم، وجرت في ألسنة هذه الأُمَّة التي اجتمعت معها في مناصب المجد، وأرومات الفخر، وشاء اللهُ أن يكون ظُهُورُها في تلك الجزيرة الجامعة، بين صحو الجوِّ، وصفو الدُرِّ، والمَحبُوَّة بجمال الطَّبيعة، ومحاسن الفطرة، لتتفتَّق عُمَّارُ تلك الجزيرة عن روائع الحكمة، مَجلُوَّة في معرض البيان بهذا اللِّسان، وقد كانت تلك اللغةُ تُرجمانا صادقا للكثير من الحضارات المتعاقبة التي شاهدها العربُ بجزيرتهم.."[36] لا يخفى على القارئ ما تزخرُ به الخطبة من

35- عبد الله الرَّكيبي، تطور النَّثر الجزائري الحديث، ص31.
36- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربيَّة، ص 128، 129.

ألوان التَّحسين البياني كالاشتقاق والتَّوليد والتَّرادف، وصور الاتِّساق والانسجام والتَّجنيس، في معرض حديثه عن فضل اللغة العربيَّة ومحاسنها وجمالها، كما في قوله: "صحو الجوِّ، وصفو الدُرِّ، جمال الطَّبيعة محاسن الفطرة، إشادة، وفاء، إعلان إحياء وحفزا، المجد والفخر، ناحية زاخرة، وجانب عامر. وما إلى ذلك من الصِّيَغ والقوالب وطرق النَّظم، التي يتألَّف منها معجمُه اللغوي، وهي تذكِّرنا بكتابات الجاحظ، وبديع الزَّمان الهمذاني، وعبد الحميد الكاتب، وغيرهم من دهاقنة اللغة كما نلحظ أن خطب الإبراهيمي تجري على نسق واحد من ناحية الأداء، وأسلوب التَّعبير، وتنبني على نمط واحد من حيث الاسترسال، والاستطراد في تصريف الكلام، وتقليب الفكرة، والتَّوسع في طرحها، بحيث لا يفصل بين فقراته وجمله -في أحايين كثيرة- سوى أدوات الرَّبط، بالنَّظر إلى ازدحام حافظته بكنوز المعلومات والمعارف، وغزارة مادَّته، وتمكنه من فُنُون الكلام، وأساليب التَّعبير واسمعه حين يقول، في خطبة ألقاها سنة اثنين وخمسين تسعمائة وألف، أمام أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بمناسبة تعيينه عضوا عاملا بالمجمع: ".. أيُّها الإخوةُ الكرامُ حيَّاكم اللهُ وبيَّاكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تصُونون عرضها، وتستُرُون قرضها، وللغة تجمعُون شتاتها، وتُحيُون موَاتها، وترعون –على تجهم الأحداث وسعة الحوادث- منَاتَها، ولهذا الجمع تُعلُون بُنيَانَهُ، وتَرفعُون على العلم النَّافع أركَانَه..."[37]، نعم إنَّ أسلوب الإبراهيمي هو صورة لثقافته الأدبيَّة واللغويَّة والدِّينيَّة الواسعة، التي أتاحت له أن يتعاطى مع مختلف قضايا عصره، ويتناولها برؤية عميقة ونافذة، ويُحلِّلها بوعي وبصيرة ويُعبِّر عنها بأرقى الأساليب التي عرفتها العربيَّة في عصره.

ولعلَّ خير ما يوضِّحُ لنا مذهب البشير الإبراهيمي في الكتابة، قولُه في معرض الرَّدِّ على بعض الكُتَّاب النَّاشئة الذين كانُوا يُجهدُون أنفسَهم في تدبيج المقالات

[37]- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي والعربيَّة، ص129، 130.

حتَّى تحظى بالنَّشر على صفحات البصائر، ويبدُو أنَّ هذه المقالات لم ترق إلى مستوى النَّشر، من حيثُ أسلوبُها ولغتُها وموضوعُها،:"للبصائر طرفان: أعلى: وهو معرضُ العربيَّة الرَّاقية في الألفاظ والمعاني والأساليب، وهو السوقُ الذي تُجلبُ إليه كرائمُ اللغة من مأنُوس صيَّرهُ الاستعمال فصيحا، وغريبا يُصيَّرُه الاستعمال مأنُوسا، وهو مَجلَى الفصاحة والبلاغة في نمطها العالي، وهو أيضا النموذج الذي لو احتداهُ النَّاشئون من أبنائنا لفَحُلت أساليبُهم، واستحكمت ملكَاتُهم، مع إتقان القواعد ووفرة المحفوظ، ولهذا الطَّرف رجالُهُ المعدُودُون، وهو نمطُ إعجاب أدباء الشَّرق بهذه الجريدة وطرفٌ أدنى، وهو ما ينحطُ عن تلك المنزلة، ولا يصلُ إلى درجة الإسفاف، وبين الطَّرفين أوساطٌ ورُتبٌ تعلُو وتنزلُ، وهي مُضطَربٌ واسعٌ ينقلبُ فيه كُتَّابُنا، من سابق الغاية، مُستشرفٌ لبلُوغها ومُقصَّرٌ عن ذلك .."[38].

واضحٌ أنَّ الإبراهيمي يُعنى بأساليب البلاغة العربيَّة، في ديباجتها ونصاعتها، فمن ألفاظ منتقاة وجودة في الأسلوب، إلى سُموَّ في الفكرة، وجمال في الصِّياغة، وكأنِّي به يتمثَّلُ جوهر الأدب الَّذي يجمعُ بين الجمال والإمتاع، وجلال الفكرة وسُموِّها، إنَّه امتدادٌ لمدرسة الصَّنعة التي تحتفي برصانة الأسلوب ومتانته، وجزالة اللغة وفخامتها، وحُسن السَّبك وقُوَّة النَّظم، وروعة البيان وجودة التَّعبير، وغيرها من الخصائص التي طبعت أدب الإبراهيمي، وبوَّأته مكانة عليَّة بين أدباء وكُتَّاب وخطباء عصره.

وقد أشرتُ في غير ما موضع بأنَّه من أحفظ أهل زمانه، وأكثرهم اطِّلاعا على عيون الأدب العربي، وأوسعهم معرفة بتراثنا اللغوي والأدبي، وأوعاهم بعلوم القرآن والحديث، والسيرة والتَّفسير الأمرُ الذي أكسبه حُضُور البديهة، وقُوَّة الحافظة وسمح له باستيعاب البيان العربي، وإدراك أسرار البلاغة، وامتطاء معارجها، وقد انعكست آثار ثقافته جليَّة في أسلوبه، والأسلوبُ هو الرَّجلُ ذاتُه

38- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 211.

كما قيل، بل إنَّهُ "..بقدر ما يكُونُ محفوظُ الكاتب أجود أصلا، يكُونُ إنتاجُه أرقى وأقوى وبقدر ما يكونُ ذهنُ الأديب أصفى وألطف ، يكُونُ تفكيرُهُ أدقَّ وأعمقَ"[39]، ولستُ أحسبُه إلَّا من الرَّعيل الأوَّل الذي اغترف من روافد التراث، واستلهم زخمَهُ، وأخذ من كُلِّ شيء أحلاهُ وأغلاهُ وأعلاهُ، بل إنَّه يُمثِّلُ في خُطَبه همزةَ قطع، وحلقةَ فصل، عن الخُطب التَّقليديَّة الجامدة، التي يقتفي أصحابُها أثر السَّابقين، ويترسَّمُون خُطاهم في كُلِّ شيء، مُعتمدين على القوالب الجاهزة والطَّرائق المبتذلة، والأساليب المطرُوقة، والصور البالية، والأفكار المكرُورة المُستهلكة واسمعهُ حين يتحدَّثُ عن الخطِّ الذي رسمتهُ البصائرُ في نشر الخطب والمقالات، يقُولُ: "..ترتفعُ في أسلوبها حتَّى تُشارف الأفق الأعلى للبيان العربي، وتخفضُ الجناح - في غير إسفاف- حتَّى تُذلِّل قُطُوفُها للجانين من جميع الطَّبقات، تطرقُ العقولَ ببراهينها فتخشع وتغزو الأفئدة ببيانها فتطرب، حتَّى كثُر المُعجبُون بها من الخاصَّة، وكثُر المتشيِّعُون لها من العامَّة، وإنَّ لها من شهادات مَن يُعتدُ بشهادتهم من صيارفة الكلام، وجهابذة الرَّأي مَن نتباهى به ونُفاخرُ.."[40]. كأنَّ الرَّجلَ يُحاولُ إرساء قواعدَ وأصول لمدرسة فنِّيَّة وتعبيريَّة، تجمعُ بين الأصالة والتَّجديد، وتستمدُ خصائصَها من روافد البيان العربي المُشرق، لكنَّها تترفَّعُ عن السَّطحية والابتذال، والإسفاف والتَّقليد، وفي هذا السِّياق يرى الدكتور "عبد المالك مرتاض" أنَّ أسلوب الإبراهيمي لا يُضاهيه أسلوبٌ من أساليب كُتَّاب عصره في الفترة الممتدَّة من العقد الثَّالث، إلى العقد الرَّابع من القرن العشرين، من حيثُ الجودةُ الفنِّية، والأناقةُ في التَّعبير بقوله: "ونحنُ نحسبُ أنَّ هذه الفترة لم تعرف كاتبا ينحُو منحى

39- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 125.
40- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص 257-258.

أبي عثمان الجاحظ في أسلوب كتابته، دون أن يبدُو عليه تكلُفٌ أو ضعفٌ، أو جدبٌ في القريحة، أو ضحالةٌ في المفردات اللغويَّة كمحمَّد البشير الإبراهيمي.."[41].

ولعلَّ اهتمام الإبراهيمي بتنميق أسلوبه، وتطعيمه بأنواع البيان، وعناصر البديع وتشقيق الكلام لم يحُل بينه وبين الإجادة والإمتاع، لأنَّ أسلوبه مُنزَّهٌ عن التَّكلف مُبرَّأٌ من التَّقليد، ومن ثمَّ استحقَّ أن يكون "إمام العصر بلا مُنازع في هذه الطَّريقة الأندلسيَّة البديعة التي لا يُحسنُها إلَّا من جمع بين الطَّبع والصَّنعة، وملك أزمَّة اللغة والغريب"،[42] إنَّه مفخرةُ الأدب العربي في الجزائر، وفي سائر البلاد العربيَّة بشهادة كبار الأدباء والكتَّاب العرب، الذين رفعُوا مقامه، واعترفُوا برفعة أسلوبه، وعلُوَّ كعبه في مجال القول والكتابة، وقد ذهب "أنور الجندي" إلى نعت أسلوبه بأنَّه" يُمثِّل أرقى أساليب اللغة العربيَّة في المغرب العربي.."[43]، وهناك من شهادات مَن يُعتدُ بشهاداتهم مَن ذهب إلى حدَّ اعتبار أسلوب البشير الإبراهيمي ظاهرة متميِّزة بين أساليب كُتَّاب العربيَّة، مثلما ذهب إليه "شكري فيصل " بقوله:" أسلوبُه قادرٌ على استحضار ما يتحدَّث عنه دائما، وعلى تمثُله وإدارة النِّقاش حوله في حياة وحركة ، لا تتوفَّرُ إلَّا لقلَّة من كُتَّاب العربيَّة.."[44]

رجل أفنى حياته في تأليف الرجال وإعداد الأجيال، وصياغة العقول والنفوس، حيث انبرى للدعوة والإصلاح والتربية، من خلال تعبئة الطاقات وشحذ العزائم والهمم، وهو عمل شاق ليس أهون من تأليف الكتب وتصنيف المراجع وتدبيج المقالات، بل هو عبء ثقيل لا ينهض به إلا أولو العزم من العلماء الربانيين العاملين والمجاهدين، وها هو يعلن أن صعوبة الظرف وخطورة الوضع مع الجهود التي تأكل الأعمار أكلا. كل ذلك لم يفت في عضده ولم يثن عزمه عن السعي

41- عبد المالك مرتاض، فنون النَّثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1983، ص 75.
42- المرجع نفسه، ص329.
43- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج5، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: ص331.
44- المرجع نفسه، ص191.

لاستنهاض الهمم وشحذ العزائم والعمل على تحرير النفوس والألباب وتبديد الأوهام والسراب والتصدي لمشاريع الهدم والخراب، يقول:" لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته فأصبح عربيا مسلما، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب"[45] وظل الإبراهيمي متصلا بعصره متفاعلا مع أحداثه، مندمجا في ماضيه، قارئا لحاضره متبصرا به، مستشرفا لمستقبله إذ ليس أخطر على الأمة من اغتراب أجيالها وانفصالها عن أسلافهم وقطيعتهم مع ماضيهم وتاريخهم، فتضيع الوديعة وتحدث القطيعة وتدك الحصون المنيعة، يقول: "وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشورا بلا لباب وألفاظا بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والبخل والشيع"[46]، فالإبراهيمي يدرك إدراك العالم الفطن البصير أن أمور الدين والدنيا لا تؤخذ بالتهريج واللغط، والانبهار بالشكليات والمظاهر والانخداع بها، ولكن الحياة الحقة تقوم على فهم الدين على وجهه الصحيح، والالتزام بمبادئه وقيمه السامية السمحاء التي تحرر الإنسان من الضلال والتيه والانحراف، وتجنبه شرور الفرقة والاختلاف والتهريج التي تورث الضعف وتجلب الهزيمة والتلاشي.

وقد كرس الإبراهيمي في خطابه مبدأ الوسطية والاعتدال في حياة الإنسان وفي تفكيره وسلوكه وضروب معاملاته وعلاقاته، وخطابه هو مشروع مجتمع واضح المعالم، بيّن المنهج، ينبني على الوحدة والتماسك والرؤية الشاملة للحياة

45- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج5، ص288.
46- المصدر نفسه، ج3، ص 482.

ومقتضياتها والعصر ومتطلباته، والاهتمام بالقضايا الكبرى والمصيرية التي هي مناط العز والشرف والسيادة والحرية والاستقلال، إنه خطاب العقل الواعي المفكر، والإدراك الصحيح، والفهم السليم، والوعي بأسباب التغيير والإصلاح والنهوض وتجاوز المحن والمصاعب والأباطيل التي من شانها إضعاف الأمة وإسقاطها في الهاوية يقول: "لو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام وأشربوا في قلوبهم معانيه السامية ومثله العليا واتخذوا من كتابه ميزانا ومن لسانه العربي ترجمانا واتجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقية من أوضار المصطلحات وعقول صافية لم تعلق بها أكدار الفلسفات؛ لسعدوا به كما أراد الله؛ ولسعدوا به البشر كما أمر الله؛ ولأصبح كل مسلم بالخير والصلاح سفيراً ولكان المسلمون في أرض الله أعز نفرا وأكثر نفيراً"[47]. ولعل الوعي الإنساني برسالته وتعلمه لمقتضياتها وإدراكه لأسباب وعوامل السبق والتفوق والنجاح هي من الدواعي التي تهيئ له السبل والمناهج القويمة هي التي تتيح له مباشرة دوره ؛والنهوض بواجباته، وتحامي كل الحقوق، والعراقيل والمصاعب التي تحول دون نهضته يقول: "إنَّ العالم في اضطراب، لأن أعماله في اضطراب، وقد جرب المناهج والأدوية وتداوي بكل ما يخطر على البال، وتداوي بالمال وسحره فلم يشف من مسّه، واسترقى بجميع الرقى فلم يبرأ من همَّه؛ وعالجه بالدواء الأحمر فكان الداء الأصفر؛ ويمينا بسره لا حنث فيه ولا تأول، لو أن الاسلام فهم على حقيقة وطبق على وجهه الذي جاء به من عند الله محمد بن عبد الله هو الدواء النافع الذي يحل العقد ويرفع الإشكال، وكان هو الحكم في معترك الخلاق والجالب بقوانينه وأخلاقه لسعادةالعالم"[48]. وهاهو يدعو المسلمين إلى القوة الجامعة، الموحدة التي تجعلهم في موقع السيادة، والزيادة والقيادة، وهي رابطة الإسلام الوثقي التي تعلو على

47- محمد البشير الابراهيمي، آثاره، ج3، ص78.

48- محمد البشير الابراهيمي، آثاره، ج4، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص78.

المصالح الضيقة، والنزعات الحزبية، والقوميات والعرقيات التي تهلك، وتغرق وتجلب الهزائم وتثبط العزائم، يقول: "دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لاتضيق بنزيل؛ وهي جامعة الإسلام إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخيل؛ وهي روحانية الشرق، وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة والوطنيات المحدودة التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم، وبينا لهم أنها دسيسة استعمارية زينها لهم سماسرة الغرب وعلماؤه وأدلاؤه، وغايتهم من التفريق، ثم التمزيق، ثم القضم، ثم الهضم ...."[49].

ويرى الإبراهيمي أن خلاص البشرية وسعادة الإنسانية تكمن في التزام مواضيع التدبير وأوامره والتقيد بشرعته، وترسم منهجه، لأن الإسلام دعوة عالمية، يجاري العقل السليم، والتفكير القويم والفطرة النقية، يقول "وإن التاريخ شهد لهذا الدين في عنفوان شبابه، وتهيؤ أسبابه، وازدهار عبابه بالفضل الأتم، والخير الأعم للبشر كلهم، وشهد أن سلف هذه لأمة ما لمسوا السعادة إلا به وما كانوا أساتذة الكون إلا بهديه. صالح لكل جنس، وهو موافق للفطرة، وهو ملائم لكل نفس"[50] وأما أركانه فلا ترفع، إلا إذا اجتمعت قوى الخير وقيم النفع والصلاح والجمال، ومبادئ العدل والفضيلة، يقول: "والأمم إنما تتفاضل وتتعالى بالبناء للخير والمنفعة والجمال والقوة، وماعدا هذه الأربعة فهو فضول عابث لا يدخل في قصد العقلاء، وقد بنى أسلافنا لكل أولئك مجتمعة ومتفرقة، بنوا المساجد مظهرا للخير، وشادوا المدارس مظهرا للمنفعة، وأعلوا الحصون مظهرا للقوة، وسمكوا القصور مظهرا للجمال، فضموا أطراف الفخر، وجمعوا حواشي المجد، وحازوا آفاق الكمال، وقادوا الحياة بزمام، وأنشأوا بذلك كله للحضارة الإنسانية الشاملة نموذجا من المدينة الفاضلة التي تخيلها حكماء اليونان، ولم يحققها ساسة

---

[49]- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص 422.
[50]- المصدر نفسه، ج4، ص 80.

يونان، وإنما حققها من ساد بالعدل وقاد بالعقل أولئك آبائي"[51]، كما اتسم خطابه بالإيجابية، فلم يكن ليكتفي بوصف الاختلالات ورصدها وتعداد السلبيات والعيوب، ولكنه يمارس النقد الذي يشرِّح الواقع والأحداث، ويحلل القضايا ويحاكم التجارب، ويقدم الحلول والبدائل التي من شأنها تذليل المصاعب والمعوقات والمكاره التي تحول دون التطور والرقي، ومن ثم الأخذ بأسباب البناء والإصلاح، بعيدا عن النقد الهدام والارتهان للعاطفة والحماسة، وتبني الأحكام الجاهزة، واستيراد القوالب والأنماط والنظريات المطروحة.

خاتمة

إنَّ ما خلَّفه البشير الإبراهيمي من آثار مختلفة، في مناحي القول، وضروب الكلام، وجليل الأعمال، وصدق الأفعال، وروعة البيان، يمثل سجلا زاخرا، ومجدا فاخرا، وجهادا مبهرا، وعلما نافعا مؤثرا، ..إنه الرجل العظيم الذي سخَّر علمه، وأنفق عمره في خدمة الأمة والدفاع عن هويتها وشخصيتها وانتمائها، وانتشالها من براثن الجهل والعبودية، وتحريرها من قيود التخلف، وانتشالها من مستنقع الهوان والاستلاب والاستبداد، رغم تجهم الأيام، وتكالب الاستعمار، من خلال منهجه الإصلاحي القائم على بث الوعي في العقول، وغرس القيم في النفوس، وتعبئة الطاقات، وشحذ الهمم والعزائم، وتشخيص العلل والمفاسد، والحرص على وصف الحلول وعرض البدائل لمعالجة الآفات، ونقد الذات، ومحاربة كل أشكال وصور الانحرافات والخرافات، وصناعة الكفاءات التي تقوى على النهوض بالمسؤوليات، وتحسن التدبير، من أجل غاية كبرى، وهي تحرير الأذهان قبل تحرير الأبدان، وتطهير النفوس من الأدران والعقد والاعتلال والاختلال، لمناهضة الاحتلال. ولعل أخص خصائصه أنه لم يكن متحزبا في فكره ولا متعصبا في آرائه ومواقفه، ولا متزمتا في منهجه، ولا متكسبا بعلمه، بل كان نموذجا للعالم العامل

---

[51]- محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، ج3، ص425.

الداعي الساعي والراعي الذي يستشعر ثقل الأمانة، ويحرص على أداء دوره المنوط به في صناعة الوعي، وتوجيه الرأي العام، والمساهمة في يقظة المجتمع، تمهيدا لنهضته، ينضاف إلى ذلك ثقافة الإبراهيمي الموسوعية التي أتاحت له أن يأخذ من كل باب من أبواب العلم أحلاه وأعلاه وأغلاه، وامتلاكه لناصية اللغة العربية، وحضور بديهته، وكثرة محفوظه، وجزالة أسلوبه وجودة نظمه، وروعة بيانه، ومثل هذه الخصائص الفنية والفكرية هي التي مكنت البشير الإبراهيمي من إرساء دعائم مشروع النهضة الفكرية والثقافية في الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع

I/ المصادر

1- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1981.

2- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج4، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط1، 1981.

3- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج5، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1981.

II/ المراجع

أ/ الكتب:

4- عبد الله ركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث، 1830- 1974، د ط المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.

5- عبد المالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، د ط ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

6- عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

7- محمد عوض محمد: محاضرات عن المقالة الأدبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د ط، 1968.

ب/ الرسائل الجامعية:

8- محمد مهداوي: البشير الإبراهيمي والعربية، رسالة ماجستير، كلية الشعب جامعة بغداد، 1983.

9- محمد العيد تاورتة: نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 1929-1939، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1980.

فهرس الكتاب

الرقم	عنوان البحث	الباحث(ة)	الصفحة
01	تقديم الكتاب	حليمة عواج	03
02	النصّ المسرحيّ الجزائريّ وإشكالات اللّغة	سليم بتقة	05
03	السرد المسرحي الجزائري مخاض النشأة	حاتم كعب	27
04	الحضور التداولي في المسرح الجزائري الأمازيغي	أسماء حمبلي	59
05	التجريب السردي في القصة الجزائرية المعاصرة	عبد القادر رحيم، د. لعلى سعادة	103
06	الخصائص الفنية والفكرية في أدب" محمد البشير الإبراهيمي"	حسين مبرك	123
07	الأبعاد الحضارية في الأدب الرحلي لأحمد رضا حوحو	عبد الحليم كبوط	153
08	"تمظهرات المشروع الحضاري في المنتج الرحلي عند ابن باديس	حليمة عواج	171
09	خاتمة	حليمة عواج	221
10	فهرس المحتويات		

بين يدي الكتاب

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من البحوث والدراسات ذات صلة بالحياة الأدبية والنقدية والثقافية في الجزائر، تستحق البحث والدرس والاهتمام. الغاية الأساسية من تأليفه هو إبراز ما في الأدب الجزائري من قيم فكرية وفنية وجمالية، وما عالجه من قضايا، وما عبر عنه من تجارب متعددة ومتميزة، تعكس قدرته على التطور والتجدد.

إن هذا الكتاب يأخذ بيد القارئ للتعرف على بعض الفنون النثرية الجزائرية الحديثة من خلال ما قدمه الأساتذة الباحثين من موضوعات فكرية قيمة تشكل صورة واضحة العالم عن الأدب الجزائري، بعد أن باتت الدراسات المتداولة عنه غارقة في التخصص، عسى أن يسد فراغا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية.

نحسب أنها بحوث ودراسات قائمة على منهجية ورؤية وخبرة، يمكن أن تسهم في بناء منهل من مناهل العلم، يستقي منه الباحثون والأدباء الكثير من المعارف الخفية في الأدب الجزائري الحديث.

9 789931 952237